مفهوم بنية الخطاب في المستويين اللغوي والاصطلاحي
عند العرب والغرب

د. شكشاك فاطمة (جامعة الحاج لخضر- باتنة1)
chekchakfatima@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/07/28	تاريخ القبول:2019/10/20	تاريخ النشر:2019/12/06

الملخص:

يُعد مفهوم بنية الخطاب من المواضيع التي اِهتمت بها الدراسات الأكاديمية في العصر الحديث، وقد نال حظا وافرا من الدراسات النقدية المختلفة في ظل النظريات المعاصرة في الأدب والنقد، تلك النظريات التي اكتشفت في فضاءاته النصية المتنوعة من الأصالة والعمق والخصوبة والثراء ما أغراها بالمزيد من التوغل في عوالم الإبداع، وفي ضوء هذه المعطيات الجديدة اِتسعت دائرة الاهتمام ببنية الخطاب لتتجاوز الدراسات الأدبية والنقدية إلى حقول معرفية متعددة كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، ليتبوأ الصدارة وسط الزخم الهائل من الإبداعات في العصر الحالي، من هنا سنحاول تقديم مسحة عامة عن معنى البنية والخطاب مع رصد المقاربات المنهجية حسب التصور العربي والغربي والبحث عن امتداداتهما في العمل الإبداعي الأدبي.

الكلمات المفتاحية: بنية؛ الخطاب؛ العرب؛ الغرب

Abstract : The structure of speech, this concept is considered one of the subjects that are interesting by academic studies in the modern time, it took the huge part of critical studies falling within contemporary theory of Literature and criticism, these theories discovered in the different texts of speech a lot of originality and richness which make it more creative. In the light of these new concepts, the circle of interest in structure of speech has been extended to reach different fields of knowledge such as psychology, sociology and anthropology, however it occupies the place of leader between the congestion of actual creations. So we will try to give a global view about The concept of structure and speech with methodological approachs Within arabic and western points of view, then we search for theirs extensions in the creative literary work.

Keywords: structure؛ the speech؛The Arabs؛ the West.

شهدت الدراسات النقدية في القرن العشرين الكثير من الاختلاف في وجهات النظر، هاته الدراسات التي كانت رافضة لفكرة تبني المنهج الواحد ومؤسسة لتعدد المناهج؛ فاختلف الدارسون حول منهج تحليل النصوص فذهبوا بذلك إلى مذاهب عدة، حتى أن بعض النقاد اِنكبوا على متابعة الإثارة الجمالية المكنونة في النص وبيانها من خلال تحديد مقاصد المبدع (المؤلف) والوصول إلى أقصى طاقات النص من خلال قراءته قراءة متمعنة في المعاني المفتوحة والممكنة لجملة من الدلالات والإشارات وغيرها.

إن التطورات النظرية والنقدية التي سادت في العشرية الأخيرة لها أرضية مشتركة يمكن أن نجدها في فكرة شائعة للمعنى الأدبي تستند إليها المناهج النظرية والنقدية منذ عصر الظاهراتية إلى الوقت الحاضر، فظهر جدل عنيف بين أولئك الذين بشروا بالحركتين البنيوية والتفكيكية، على أنهما في عصر جديد يزيل الغموض عن تأويل النصوص وتفسيرها باعتبار أن الكلمة تكتسب معناها من بنية كتابتها ومن المعنى المعجمي الذي تتضمنه.

لقد حقق المنهج البنيوي من التراكم في البحوث والدراسات العربية ما يجعل منه مادة للبحث والمراجعة والنقد، وهو ما نحاول الإلمام بمعناه في المستويين اللغوي والاصطلاحي عند العرب والغرب.

1. مفهوم البنية:

1.1. البنية لغة:

جاء في كتاب "لسان العرب" في مادة (بنى): « بَنَى البِنَاء بَنْيا وبِنَاء وبني، مقصور وبُنْيَانًا وبُنْيَة وبِنَايَة، والبِنَاء: المبني، والجمع أَبْنِيَة وأَبْنِيَاتٍ جمع الجمع... » و«البُنْيَةَ والبِنْيَةَ: ما بَنَيْتَه وهو البُنَى والبِنَى يقال (بُنْيَة: وهي مثل رُشْوَة ورسا كأن البُنْيَة الهيئة التي بَنَى عليها مثل المشية والركبة... والبُنْيَان: الحائط»[1] فهي مشتقة من الفعل الثلاثي (بَنَى) وتعني البِنَاء أو الطريقة أو التشيد والعمارة والكيفية التي يكون عليها البناء، وقد جاء في المعجم الوسيط قوله « هيئة البناء، ومنه بنية الكلمة: أي صيغتها وفلان صحيح البُنية»[2] ومادامت البُنية تفيد معنى (الجسم)كما ورد يمكننا القول بأن بنية الكلمة تعني جسمها وهيئتها التي تظهر عليها نطقا وكتابة ليصبح «مصطلحاً يحمل في طياته مفهوما معماريا فجمع بَنَى وبَنِي أي ما بَنَيْتَه والبنية

هي الفطرة يقال فلان صحيح البنية، أي الجسم وبنى الكلمة أي ألزمها البناء أي أعطاها صيغتها »[3].

لقد ورد الفعل الثلاثي المقصور (بنى) وجميع اشتقاقاته (بناء، بنيان، مبنية....) في نحو نيفا وعشرين مرة في القرآن الكريم خالية من كلمة (بنية) من ذلك قوله تعالى في سورة الصف « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ»[4] و هذا إخبار من الله تعالى بمحبة عباده المؤمنين الذين يصطفون لمواجهة أعداء الله يقاتلون في سبيله، لتكون كلمته هي العليا بهذا الصف المحكم حسا ومعنى و الذي لا يجد فيه العدو ثغرة يتسلل منها، ونجد هذا المصطلح أيضا في سورة البقرة «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»[5] فالسماء للأرض كالسقف للبيت فالأرض تستقرون عليها والسماء بناء لمساكنكم، وفي سورة التوبة قوله تعالى « لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[6] أي شكا ونفاقا وريبا ماكثا في قلوبهم إلا إذا ندموا وخافوا ربهم وتابوا إليه فإن الله حكيم عليم، فلا يزال بنيان هؤلاء الذين اتخذوا مسجدا ضررا وكفرا، وفي سورة الكهف قوله تعالى « فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» [7] أي بناء مسجد يعبد الله فيه ويبقى تذكرة بأصحابه، وغير هذه الآيات كثيرة وما جاء به القرآن من اشتقاقات لكلمة (بَنَى) وما يلاحظ عليها أنها تصب في قالب واحد ألا وهو التركيب والهيكل والبنيان أو النظم.

إن ما سبق ذكره عن البنية كان عند العرب أما في الفكر الغربي فنجد أن التعريف اللغوي يختلف من شخص لآخر، فهي« تركيب ويقابله دائما بالفرنسية (Structure) ونقول بنية عميقة (Structure Profonde) وبنية روائية (Structure Narrative) وبنية سطحية (Structure Superficielle ou Structure de Surface»[8] ونسجل بهذا الخصوص أيضا ما تشير إليه كلمة البنية « المشتقة من الفعل اللاتيني (Striure) والذي يعني بنى وشيد أو يعني البناء والطريقة التي يقام بها مبنى ما، وتدل هذه الكلمة في اللغة الفرنسية على معاني مختلفة ومتعددة إلا أنها متقاربة، فهي تعني النظام (L'ordre) التركيب (Constitution) والترتيب (Disposition) والشكل (forme) والهيكلة Organisation»[9] وحتى يكون للظاهر بنية فلابد أن يكون له نظام أو شكل يكون منتظما في صورته الخاصة، ووحدته الذاتية أو هيكله العام أو

مظاهر شكله أو نسقه، وكما قال الفرنسي جورج مونان(G.Mounin): «إن كلمة بنية ليس لها رواسب وأعماق ميتافيزيقية فهي تدل أساسا على البناء بمعناه العادي»[10] كما يتعمق الدكتور يوسف وغليسي في دراسته عن البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية فيقول «تشتق البنيوية من البنية، فكلمتي (Structure) بالرسم الفرنسي والإنجليزي الموحد أو (Structura) اللاتينية والبناء (Construction) بالرسم الموحد أيضا مع فارق في النطق أو (Construction)اللاتينية كلتيهما تمتدان إلى الفعل الفرنسي (Détruire) بمعنى الهدم والتقويض والتخريب الذي يمتد تأثيره إلى الفعل اللاتيني (Strumere) بمعنى تنضيد المواد (Empilier des Matériaux) أو التأسيس والتشييد (Bûtir)، كما أن هذا الفعل اللاتيني المتكئ على القاعدة(Stru) ينحدر من الصيغة الهند وأوروبية (Ster) بمعنى: المد والنشر والبسط والتوسع (Etendre) »[11] لنصل إلى أن الدلالات المعجمية لا يكتمل معناها إلا وفق رؤى متكاملة تأخذ بالبعد الإصطلاحي وتطبيقاته في الحقل المعرفي.

2.1. البنية اصطلاحا:

بعد ما تطرقنا إلى تعريف البنية لغة يجدر بنا أن نعرفها اصطلاحا، حيث يرى الدكتور (أحمد مطلوب) في معجم (مصطلحات النقد العربي القديم) «أن بنية الكلام: صياغته ووضع ألفاظه ووصف عباراته، وإلى ذلك ذهب قدامة فقال: "بنية الشعر، إنما هو التشجيع والتقفية، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه كأن أدخل له في باب الشعر وأخرج له عن مذهب النثر فبنية هذا الشعر على أن ألفاظه مع قصرها قد أشير بها إلى معان طوال»[12] وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن مفهوم البنية قد وجد في النقد العربي القديم إلا أن حضوره كان نادرا، وهذا ما لاحظه (إدريس الناقوري)، حيث قال: « يمكن أن نستنبط مفهوما آخر للبنية عند قدامه، ونعني به الوضع اللغوي السليم والمستقيم للكلمات في البيت»[13] وهنا يتضح بأن البنية ليست طفرة مفهومية، بل هي امتداد لجملة من المفاهيم الموزعة على حقول معرفية مختلفة لأن «المضمون يكتسب واقعه من البنية وما يسمى بالشكل ليس سوى تشكيل لهذه البنية من أبنية موضوعية أخرى تشمل فكرة المضمون نفسها، ونتيجة لهذا التصور فإن البنية لا تبتر الواقع وإنما هي على العكس من ذلك تتيح الفرصة لإدراكه بجميع ظواهره»[14] ومعنى ذلك أن تحليل أي نص لغوي يعتمد على أمرين هما: استقلاليته عن أية ملابسات- الظروف الخارجية- تحيط به، والثانية تشابك وحداته وترابطها فيما بينها داخليا.

إن الدراسات التي اهتمت بالبنية قد جعلتها موضوعاً مستقلاً خاضعاً لقوانين داخلية يربطها نسق معين يضمن تماسكها لتكون «القانون الذي يفسر تكوين الشيء ومعقوليته، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول بأن البنيويين حين يبحثون عن بنية هذا الشيء أو ذاك فإنهم لا يتوقفوا عند المعنى التجريبي الذي يضعه الواقع بين أيدينا على نحو مباشر، بل إنهم يهدفون أولا وقبل كل شيء إلى الكشف عن النسق العقلي الذي يزودنا بتفسير للعمليات الجارية في نطاق مجموعة بعينها »[(15)] ومن هنا نجد أن البنيوية تخترق المعنى اللفظي إلى بواطن النص لتكشف عن روح التجربة الإنسانية التي اختزل معدلاتها النص الإبداعي.

ومن هذا المفهوم نرى بأن البنية في أبسط صورها وأوجزها هي بناء أو هيكل أشبه بالهيكل الهندسي المتشابكة وحداته ذات الاستقلال الداخلي، والتي تتخذ قيمتها بالعلاقات الداخلية بينها وذلك بمعزل عن أية عناصر خارجية، كصاحب النص المنطوق أو المكتوب أو السياق الخارجي أو غير اللغوي.

إن البنيوية في الثقافة العربية قد جعلت النقاد يتعاملون مع النص على أنه تركيب لغوي وذلك من خلال استفادتهم من المنهج البنيوي الذي يقطع الصلة بين النص وظروفه الاجتماعية والموضوعية والفنية وحتى التاريخية، وبالتالي تلغي فكرة التفرد لتكون ماهيتها عبارة عن دراسة العلاقات بين البنى المختلفة في النص الأدبي.

أما عن تعريف "البنية" اصطلاحا عند الغرب فقد عرفها (لالاند) في المعجم الفلسفي على أنها «نسق أو كل مؤلف من ظواهر متضافرة، بحيث تكون الظاهرة فيها تابعة للظواهر الأخرى، ولا يمكن أن تكون ما هي عليه إلا في علاقتها بتلك الظواهر»[(16)] فهي تركيب الأقسام التي تشكل الكل بالتضاد، ولا يمكن أن تكون ما هي عليه إلا في علاقتها بالظواهر الأخرى، وقد جاء تعريفها في قاموس "لاروس" بأنها «الطريقة التي يبنى بها صرح أو منشأٌ، ثم بالتعميم هي الطريقة التي يكون بها أجزاء أي كل أو مادة معينة أو جسم حي منسقة بين بعضها البعض»[(17)] أي أنها مجموعة العناصر المتماسكة فيما بينها، بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الأخرى ويتحدد معنى العنصر بعلاقته بتلك العناصر.

ويعد كتاب محاضرات في اللسانيات العامة للغوي فردينان دوسوسير Ferdinand de saussure(1857-1913) أول مصدر للبنيوية في الثقافة الغربية، هذه الأخيرة التي هي مدينة

له، فهو يعد أبا اللسانيات البنيوية، وقد كان يعبر عن (البنية) بمصطلح «النسق أو النظام (Système) ولم يكن يصدع بمصطلح البنية (Structure) على حد تقرير جون بياجي وجمهور الدارسين الذين أجمعوا على أن (دوسوسور) في إلحاحه على نظامية الاستعمال اللغوي قد سمي (نسقا) ما سماه خلفه (بنية)»[18] لأنه ينظر إلى اللغة بوصفها نظاما أو هيكلا مستقلا عن صانعه أو الظروف الخارجية التي تحيط به، وبالنظر إلى هذا الهيكل من داخله نجده يمثل مجموع الوحدات المكونة له بوصفه يمثل كلا قائما بذاته؛ فقيمة الشيء ليست بذاتها بل بعلاقاتها بغيرها، ولو لم يكن كذلك لما اختلفت وجهات النظر في النص الواحد وكانت النتيجة واحدة، في حين نجد أن للنص الواحد مجموع نصوص فيخرج لكل شخص نص مستقل عن طريق إعادة كتابته بقراءة أخرى، وهنا يرى العالم السويسري جون بياجيهJean piaget (1896-1980) بأنها «عبارة عن نسق من التحولات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا، وأن هذه البنية تتسم بخصائص ثلاث الكلية والتحولات والتنظيم الذاتي»[19] ونقصد بهذا القول بأن «الكلية تتكون البنية فيها من عناصر داخلية خاضعة لقوانين النسق. والتحول هو سلسلة من التغيرات الباطنية التي تحدث داخل هذا النسق من أجل التنظيم الذاتي فتنظم البنية نفسها لتحفظ لها وحدتها، وتساهم في طول بقائها»[20] ومن هنا نلاحظ عدم الاعتراف بالفردية والاستقلالية بالنسبة للنص؛ لأنه نسق يتحدد العنصر ضمنه بوضعيات مختلفة، فتغدو منظومة من العلاقات والقواعد المركبة والمتبادلة التي تربط بين مختلف حدود المجموعة الواحدة؛ بحيث تعين هذه العلاقات وهذه القواعد على إعطاء معنى كل عنصر من العناصر معنى خاصا، ومهما يكن من أمر فإن رائد البنيوية المعاصرة كلود لفي ستراوس-Claude Lévi) (Strauss يجعلها تحمل أولا وقبل كل شيء طابع النسق أو النظام الذي يوجد من خلال الكل، وهو ما يمكن تطبيقه على أي نوع من الدراسات، انطلاقا من كون معنى الجملة سابق لمعنى الكلمة، فليس للكلمة معنى أو قيمة وهي مستقلة إلا من خلال علاقتها بغيرها أو وجودها في سياق عام أو ضمن تحديد بعينه، فمن خلال الجملة نفهم معنى الكلمة ويصبح لها قيمة ووجود فهو يرى بأن «البنية عبارة عن نموذج يقوم الباحث بتكوينه كفرض للعمل، انطلاقا من الوقائع نفسها» [21] لتصبح في مفهومها العميق تخدم المظاهر الأدبية بشتى أجناسها، وأن الكشف عن بنية القصة أو الرواية يدفع إلى الكشف عن طبيعة اللغة فيها، وقد بين

الفيلسوف الفرنسي بول ريكور(P.Ricoeur) أن اللغة في البنيوية« لا تشير إلى شيء خارج ذاتها، بل تشكل عالما خاصا بذاتها، ولا تستبعد البنيوية إحالة النص إلى العالم الخارجي وحده، بل تستبعد كذلك روابطه بالمؤلف الذي (قصده) والقاري الذي يؤوله»[(22)] وجوهر فلسفة(بول ريكور) اللغوية هو تحليل العلاقة بين اللغة والواقع، وهي رؤية وليدة تأمل فكري مبني على التأمل في بنية اللغة.

إن المتتبع لأهم الدراسات التي تناولت موضوع البنية يجد أنها « ترادف البناء ، الهيكل ، التركيب، النظم، البنيان، أمام المصطلح المركزي structure »[23] وكلها تحيل في ذاتها إلى المنهج البنيوي والذي من أهدافه تحديد البنية كموضوع قائم بذاته، خاضع لقوانين داخلية يضبطها نسق معين يضمن تماسكها داخل النص، باعتبارها مجموعة من العناصر المتآلفة فيما بينها، وذلك من خلال تحديد علاقة الوحدات البنيوية ببعضها البعض من أجل تفجير المعاني في فهم التجربة الإنسانية.

2. مفهوم الخطاب:

يعتبر الخطاب من الألفاظ التي شاعت في حقل الدراسات اللغوية والتي لقيت إقبالا واسعا من قبل الدارسين والباحثين، وهو ما جعل مفهوم الخطاب لا يكون جامعا مانعا، وهو ليس جديدا على الساحة الأدبية وإنما هو كيان متجدد يولد في كل زمان ولادة جديدة يتأقلم والمرحلة التي جيء فيها، فيمتد حضوره إلى النصوص المتعاليات من شعر جاهلي وقرآن كريم، وكذا في الدراسات الأجنبية، حيث تمثل الأوديسا والإلياذة نماذج خطابات متفردة، وهنا سنحاول البحث في مفهوم الخطاب سواء عند العرب أم عند الغرب لغة واصطلاحا وما مسعانا إلا محاولة البحث عن جذور هذا المصطلح.

1.2. الخطاب لغة:

جاء في كتاب "لسان العرب": «خَطَبَ فلان إلى فلان، فَخَطَبَه أو أخْطَبَه أي أجابه، والخِطَابُ والمُخَاطَبَة: مراجعة الكلام، وقد خَاطَبَه بالكلام مُخَاطَبَة وخطاباً، وهما يتخاطبان والخطب: سبب الأمر، الليث والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر واختطب، يخطب، خطابة، واسم الكلام الخطبة، قال أبو منظور: والذي قال الليث: أن الخطبة مصدر

الخطيب ولا يجوز إلا على وجه واحد، وقال الأزهري: نقول هذا خطب جليل وخطب يسير وجمعه: خطوب »[24].

«وخطب الخاطب على المنبر خطابة "بالفتح" وخطبة "بالضم"، وذلك الكلام خطبة أو هو الكلام المنثور المسجع ونحوه ورجل خطيب: حسن الخطبة، والخطيبي: المحدث: خطب خطابة: صار خطيبا. خاطب خطابا ومخاطبة.. يقال خاطبه فلان أي راجعه في شأنه: تخاطبا: تكالما والخطاب: ما يكلم به الرجل صاحبه، ونقيضه الجواب: الأخطب: تفضيل من الخطابة: أي اسم تفضيل »[25].

أما في معجم (الفيروز آبادي) فقد جاء بالتالي: «الخطب: الشأن أو الأمر صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر، يقال: ما خطبك أي ما أمرك؟ وتقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير، الخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال، ومنه قولهم جل الخطب، أي عظم الأمر والشأن والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام »[26].

«و قيل (فصل الخطاب) الفقه في القضاء، خطب المرأة خطبا وخطبا فهي خطبة وخطبته، وهو خطبها، والخطاب المتصرف في الخطبة »[27].

أما مصطلح "الخطاب" في القرآن الكريم فإننا نجدها في ثلاث آيات بمعان مختلفة في قوله: «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ»[28] وهو أن يحكم بالبينة أو اليمين، وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل وقوله أيضا: « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ »[29] وفي سورة النبأ « رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا »[30].

إن ما يلاحظ عن هذه المفاهيم هو أن معنى "الخطاب" يصب في قالب واحد ألا وهو الكلام والرسالة، أو ما يخاطب به الأنا الآخر ونقيضه الجواب، وبالتالي هو مقطع مشفر يحمل معلومات من (المرسل) إلى (المرسل إليه) فيكتب السامع أو الكاتب رسالة فيفهمها الآخر أو المتلقي بناء على نظام لغوي مشترك، وعليه نلاحظ أن جميع الاشتقاقات المذكورة تفيد وتعني الكلام الموجه من قبل شخص ما إلى متلقي الرسالة، مستمعا كان أو قارئا بل حتى مشاهدا مهما كانت صفته لكونه يحمل دعوة إلى الإقبال على شيء أو الابتعاد عنه، من هنا أطلق على الرسالة بوصفها كلاما مكتوبا موجها اسم خطاب.

إن ما سبق ذكره عن (الخطاب) كان عند العرب أما في الفكر الغربي فتجد أن التعريف اللغوي يختلف من شخص لآخر، فالمفاهيم اللغوية تتدخل في بنائها عناصر متعددة كالمرسل والمتلقي والرسالة التي تحيلنا إلى الحوارية والتي تجمع بينهما «ويقابل مصطلح الخطاب Discourse باللغة الإنجليزية Discours باللغة الفرنسية فنجد المعاجم الغربية المتخصصة تقدم مجموعة من المقابلات والتحديات المتنوعة بمعنى كلام أو محاضرة تلقى على مستمعين، كما تزاوج بين النص والكلام من جهة والخطاب واللغة من جهة ثانية أخرى كما تقابل بينهما أحيانا»[(31)] وهو ما ذهب إليه الناقد المصري (جابر عصفور) في كتابه (آفاق العصر) بقوله هي «نوع من الترجمة أو التعريب لمصطلح (Discourse) في الإنجليزية ونظيره Discours في الفرنسية أو Diskurs في الألمانية»[(32)] أما على مستوى الاشتقاق اللغوي «فأغلب المرادفات الأجنبية الشائعة لمصطلح (الخطاب) مأخوذة من أصل لاتيني، هو الاسم (Dircursus) المشتق بدوره من الفعل Discursere الذي يعني (الجري هنا وهناك) أو (الجري ذهابا وإيابا) وهو فعل يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي، وإرسال الكلام والمحادثة الحرة والارتجال وغير ذلك من الدلالات التي أفضت في اللغات الأوروبية الحديثة إلى معاني العرض والسرد »[(33)] وتحدد الكتابة للمعاني كملفوظات في تشكيلها للخطاب السردي الذي يحتكم إلى النظام اللغوي وعلاقته بالمنظومة المعرفية ، وذلك من أجل تحديد مستويات القراءة وآلياتها.

2.2. الخطاب إصطلاحا:

بعد ما تطرقنا إلى مفهوم الخطاب لغة يجدر بنا أن نعطي له مفهوما اصطلاحيا؛ حيث يرى المجتمع العربي بأن أصوله ضاربة في القدم فيقول الزمخشري: «بأنه الكلام أو المقال وعده كيانا أفرزته علاقات معينة بموجبها التأمت أجزاؤه وقد تولد عن ذلك تيار يعرف الملفوظ الأدبي بكونه جهازاً خاصا من القيم طالما أنه محيط ألسني مستقل بذاته وهو ما أفضى إلى القول بأن الأثر الأدبي بنية ألسنية تتجاوز مع السياق المضموني تجاوزا خاصا»[(34)] فهي لغة التعبير الأدبي أو اللغة الفنية أو المواجهة بالكلام، ورآه جابر عصفور على أنه «الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاما متتابعا تسهم به في نسق كلي متغير ومتحد الخواص أو على نحو يمكن معه أن تتألف الجمل في خطاب بعينه لتشكل خطابا أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد وقد يوصف الخطاب بأنه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي تنتجها

مجموعة من العلاقات أو يوصف بأنه مساق العلاقات المتعينة التي تستخدم لتحقيق أغراض معينة »[35] وبالتالي فهو نسيج كلامي وحواري واللغة هي الأداة الجوهرية التي تقوم بتبليغ الرسالة فيه، وعليه فهذا الخطاب ليس خطابا عاديا بل هو خطاب بخصوصيته المتميزة والمتفردة يختلف عن الخطاب العادي، فاللغة قائمة بذاتها وغاية في ذاتها تسهم في بناء الخطاب بوسائل أكثر تقنية وحداثة والخطاب «هو ما تركب من مجموعة متناسقة من المفردات لها معنى مفيد، والجملة هي الصورة اللفظية الصغرى أو الوحدة الكتابية الدنيا للقول أو الكلام الموضوع للفهم، ولا يكون الكلام تاما والجملة مفيدة إلا إذا روعيت فيها شروط خاصة منها ما تعود إلى المنطق ومنها ما يعود إلى اللغة وقيودها»[36] فمعايير هذا الخطاب تقوم على وسائل فنية يدركها الكاتب أو المتلقي أو الأنا مع الآخر في الوقت ذاته مع التغير الزمكاني والعوامل المؤثرة فيه (اجتماعية، تاريخية، نفسية، ....) بمعنى أن الخطاب مرادف للكلام أي الإنجاز الفعلي للغة فهو «رسالة أو مقول »[37] وهي «اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه ذات معينة، كما أنه يتكون من متتالية تشكل مراسلة لها بداية ونهاية»[38] وعليه يكون «هو الوسيط اللساني في نقل مجموعة من الأحداث الواقعية والتخيلية التي أطلق عليها (جينيت) مصطلح الحكاية»[39] ليصبح الخطاب الأدبي هو الممارسة الأدبية للغة مقروءة أو مكتوبة، وهي تتقيد بأسس مختلفة بحسب نوع الفن التي هي بصدد قراءته وبحسب القيم الجمالية التي تقوم عليها اللغة عند كل أمة تبعا لحضارتها أو ثقافتها.

إن ما تقدم ذكره عن تعريف الخطاب كان عند العرب، أما عند الغرب فنجده حسب العالم الفرنسي اللغوي "إميل بنفنستÉmile Benveniste (1902-1976): «هو الملفوظ منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، بمعنى آخر هو كل تلفظ يفرض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما»[40] فهو يشترط وجود متحدث ومتلق يكون للطرف الأول فيه التأثير والقبول من الثاني ويعرفها اللساني البنيوي زليغ هاريس(Z.Hrris): «بأنه ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل متعلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض»[41] فهي حسب سعيد يقطين –مادة الحكاية- القاعدة الأساسية التي ترتبط من خلالها الدوافع الداخلية والإيدولوجية ببعضها البعض لتكون مادة أصلية يتحقق بها العمل

الحكائي(روائي أو قصصي) والتي نجدها منبثقة من وجود (الحدث) أو الفعل والشخصية أو(الفاعل) وتكاملهما مع الزمان والفضاء فهي إذا «ليست تجمعا بسيطا أو مفردا من الكلمات أو الكلام بالمعنى الذي قصده دي سويسر ولا ينحصر معناه في قواعد ذات قوة ضابطة للنسق اللغوي فحسب، إنه ينطوي على العلاقات البينية التي تصل بين الذوات، ويكشف عن المجال المعرفي الذي ينتج وعي الأفراد بعالمهم، ويوزع عليهم المعرفة المبينة في منطوقات خطابية سابقة التجهيز»(42).

وعليه فالخطاب هو رسالة يبثها المبدع أو المخاطب (المتلقي) و« أول من وضع مخططا لعملية التواصل هو رومان جاكسبون كما يلي:

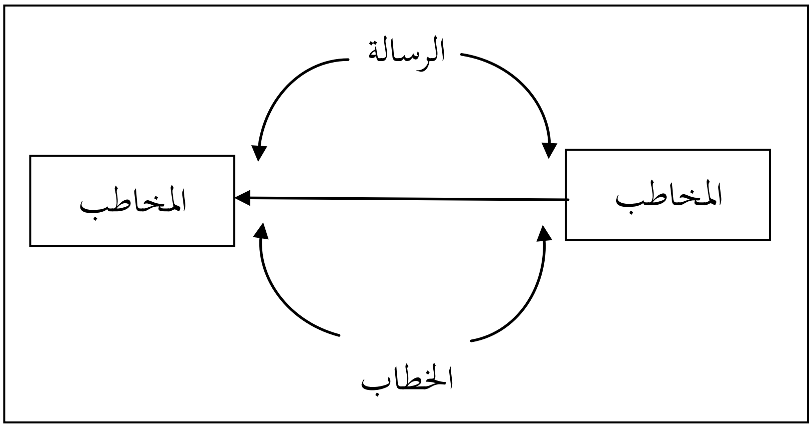

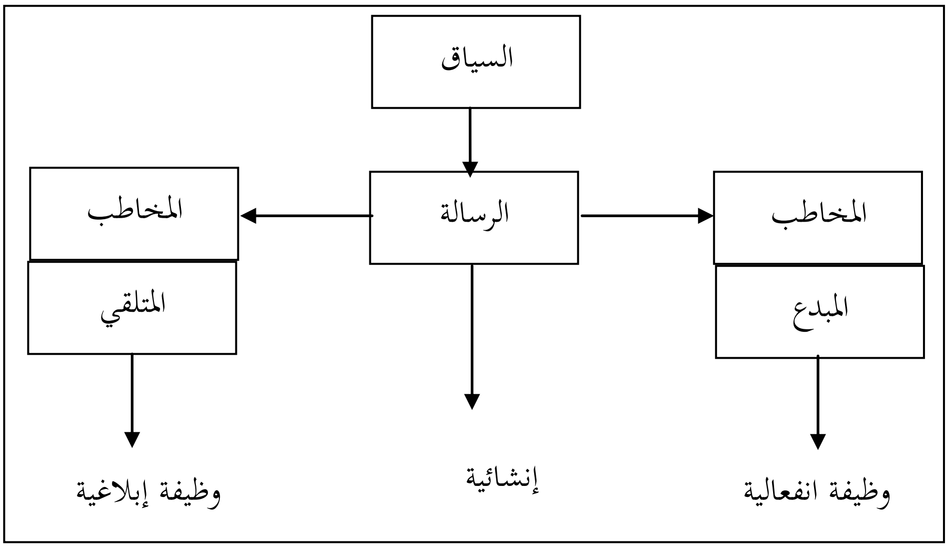

حيث يرى أن كل رسالة لغوية لا تتحقق إلا من خلال تحليل الوظائف هذه المسيرة لعملية التخاطب»(43).

فالخطاب حسب الروسي رومان جاكسبون Roman jakobson (1896-1982) –أحد رواد المدرسة الشكلية- يتمثل في رسالة مقدمة من المبدع الذي هو المخاطِب إلى المتلقي الذي هو المخاطَب عند إنشاء فكرة ما وفي سياق معين، ومن هنا نقول بأنه تحددت المفاهيم الخاصة بالخطاب عند التقاء الغربيين باختلاف تخصصاتهم ومجالات بحوثهم.

ومن هنا نرى أن الدراسات «قد قامت من أجل خدمة النص الأدبي والإبانة عما في طواياه من جمال، والكشف عما في خفاياه من أبعاد ودلالات أو علاقات أو ثنائيات متشاكلة أو متضادة، أو كل ما يمكن أن نطلق عليه حقيقة النص»[44] و هو ما تعبر به اللغة عن أفكار الكاتب ومعتقداته، والخطاب عموما « عبارة عن وحدات لغوية تتسم بـ:

- التنضيد: ما يضمن العلاقة بين أجزاء الخطاب، مثل أدوات العطف وغيرها من روابط.
- التنسيق: ما يحتوي تفسيرا للعلائق بين الكلمات المعجمية.
- الانسجام: وهو ما يكون من علاقة بين عالم النص وعالم الواقع »[45].

وعلى العموم نلاحظ أن جميع الاشتقاقات المذكورة تفيد الكلام الموجه من قبل شخص ما إلى متلقى مستمعا كان أو قارئا بل حتى مشاهدا، لكونه يحمل دعوة إلى الإقبال على شيء أو الابتعاد عنه ومن هنا أطلق على الرسالة بوصفها كلاما مكتوبا موجها اسم "خطاب".

وفي الأخير نجد أن بنية الخطاب تحاول تفسير ماهية ووجود العمل الإبداعي في إطار علاقة الذات الفاعلة بالوجود الإنساني، وقد امتدّت الدراسات إلى عمق التاريخ في محاولة الإجابة عن التساؤلات التي أحاطت به من وجهات نظر مختلفة.

المراجع:

---

[1]ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ج1، مج6، 1993، ص 258.

[2]إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة،ط1، 2010، مادة (بنى)، ص 92 .

[3]عبد النور جبور، المنجد في اللغة العربية، دار المشرق، بيروت، ط31، 1991، ص 50،51.

[4] سورة الصف، الآية 04.

[5] سورة البقرة، الأية 22.

[6]سورة التوبة، الأية 110

[7]سورة الكهف ،الآية،21.

[8]بسام بركة، معجم اللسانيات، فرنسي عربي، منشورات حروس، طرابلس لبنان،م ط، 1985، ص193.

(9) زبير دراقي، محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الساحة المركزية، بن عكنون، 1990، 07

(10) ذهبية الحاج حمو، لسانيات التلفظ وتداوليه الخطاب، دار الأمل للنشر، الجزائر، م ط، 2005، ص 50.

(11) د. يوسف وغليسي، البنية والبنيوية جامعة منتوري قسنطينة عن:

J. Picoche, Dictionnaire étymologique du français, le Robert, Paris, 1994, P 162،163 (Détruire).

(12) أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان، ناشرون،م ط، بيروت 2001، ص 130.

(13) إدريس الناقوري، المصطلح النقدي في "نقد الشعر"، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط2 ، 1984، ص 95.

(14) صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، ط1، 1998، ص139،138.

(15) معمر حجيج، محاضرات في المناهج الأدبية، مطبوعات جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب، باتنة، 2005،2006.

(16) يوسف خالد، في النقد الأدبي وتاريخه عند العرب، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط1، 1987، ص22

(17) A.J ، GRIEMAS, sémantique،structurale،paris, larousse،1966،p 96

(18) د. يوسف وغليسي،البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانيات العربية،مجلة الدراسات اللغوية، جامعة قسنطينة، العدد 06، 2010، ص267.

(19) محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، دراسة في نقد النقد، دمشق، من منشورات إتحاد كتاب العرب، دط، 2003، ص20

(20) جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة والدكتور البشير اوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط4 ، 1985، ص 08

(21) محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي على المناهج النقدية الحديثة ، مرجع سابق، ص 14

(22) بول ريكور، من الوجودية إلى فلسفة اللغة (الوجود والزمان والسرد)، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي،بيروت، ط1، 1999، ص269.

(23) يوسف وغليسي،البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانيات العربية،مجلة الدراسات اللغوية، ص277.

(24) ابن منظور، لسان العرب ج1، دار صادر ، بيروت ،ط1، 1955 ، مادة (خَطَبَ)، ص 361.

(25) ابن منظور، لسان العرب ج4، مرجع سابق، ص 135،136.

(26) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، إعداد وتقديم، محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، (ج1) ، بيروت لبنان،2000 ص 157،158.

(27) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص 158.

(28) سورة ص،الآية 20.

(29) سورة ص، الآية 23.

(30) سورة النبأ، الآية 37.

(31) محمد مفتاح، بعض خصائص الخطاب، علامات في النقد، المجلد 09، ج35، مارس 2000، ص 09.

(32) جابر عصفور، آفاق العصر، دار الهدى للثقافة والنشر، سوريا، دمشق، ط1، 1997، ص 47.

(33) نفسه، ص47،48.

(34) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ط1، م ت، ص 110.

(35) جابر عصفور، عصر البنيوية من لفي ستروس إلى فوكو، دار الآفاق العربية، بغداد، م ط، 1985، ص 269.

(36) ريمون الطحان، الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981، ص 44.

(37) إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق الجزائر، ط1، 1999، ص 10.

(38) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط3، 1997، ص 21.

(39) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى، منشورات الإختلاق،الجزائر، ط3، 2003، ص 38،39.

(40) إبراهيم صحرواي، تحليل الخطاب الأدبي، مرجع سابق ، ص 10.

(41)سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، مرجع سابق ، ص 24،25.

(42)جابر عصفور، آفاق العصر، مرجع سابق ، ص 49.

(43)عبد الرزاق الورتاني، مفهوم الأسلوبية عند جاكسبون، مجلة القلم، العدد 10، تونس، 1977، ص 11،12.

(44)عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2002، ص 51.

(45)رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1،م ت، ص 17،18.